حرية
الاتجاه الادبي

الأدب العربي من نظم ونثر له اتجاهات معدودة في المعنى والأسلوب على قدر مؤثرات العصور التي مرّ بها، غير انه في كل دور من أدوار حياته مرآة صافية تتجلى فيها حياة العصر بأصوائها وظلالها بأبهى صورة وأدق معنى .

ولقد بلغ نقاد الآداب في تعداد الاتجاهات الخاصة بها والأساليب التي يجب السير عليها مذهبين هذا على ذاك بما شاءت لهم قوة برهانهم الدامغ وبيانهم الناصع . فوجدوا — من الاتجاهات — الاتجاه الكلاسيكي (الاتباعي) وهو الذي على نهج القدماء ، والمذهب الابتداعي الذي ينطوي حسب قولهم على الانبعاث في مناحي الحياة والابتعاد عن الانغمار في حمأتها ، والجلوس في البروج العاجية ومناجاة الدمن والأطلال والمقابر وغيرها ... ، والمذهب الرمزي الذي يرمي الى الايحاء والإبهام والذي تشبه بحرته أو مواضيعه (الكنايات) ولكن بصورة تفصيلية ، ومذهب السريالزم المنطوي على أحلام ومرامي العقل الباطن ، والمذهب الواقعي الذي يتعرض محيط الحياة من الناحية الى الشاطىء على حدّ ما يرى اليه معنى قولهم . ولقد بالغ دعاة هذا المذهب في الغض عليه حتى ليخيل لقارىء بحوثهم ان الحياة معلقة بهذا اللون من الأدب مع إنها ولادة الدهر وربيبته . وكان أحرى بهؤلاء الدعاة ان يدعوا الناس الى اقتبال روح العلم العصري والتهاج سننه في الحياة واستغلال نظرياته في تعمير الحياة ورقيها ، كما استغلته شعوب الأرض فنجحت وتقدمت ولم تتقدم لو بقيت متمسكة بقول الشاعر .

نسج الريح على الماء زرد يا له درعاً مضيعاً لو جمد

أقول هذا لأني لا أعتقد بحتمية وجود هذه التقسيمات ، ولأن هذه الاتجاهات ما هي إلاّ وليدة ميول موروثة متطورة في سيكولوجية الجسم البشري وتركيبه الحيوي

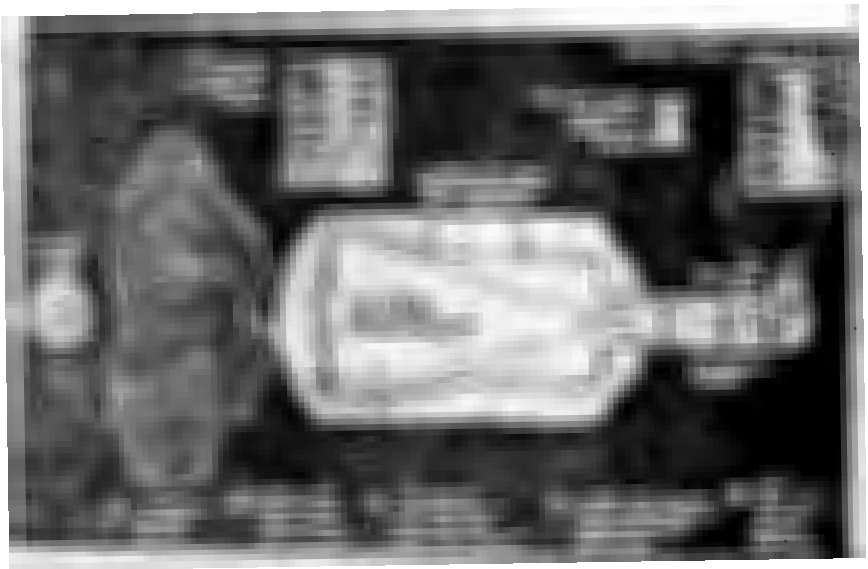

شكل (٤) رسم «كروكي» للفلوروسكوب الكهربي يوضح كيفية تقويته لاشراق صورة أشعة رنتجن

الشكل الذي على اليسار بأعلى الصورة يمثل صورة سائلة للحجاب الأول من حجب أشعة رنتجن. والذي على اليمين يمثل صورة مشرقة على الحجاب الثاني المتألق من حجب أشعة رنتجن. والرسم البياني للصمام يمثل صورة المدسات الكهربائية الساكنة التي تعمل سير الكهيربات وتحددها في بقعة واحدة. وقرب قوعة الصمام منشور زجاجي عاكس. وفي رقبة الصمام عدسة مكبرة

وفي أسفل الصورة يسرة (١) صمام أشعة رنتجن — الذي تنطلق منه الأشعة في جسم المريض (٢) حجاب متألق يلتقط أشعة رنتجن فيحيلها ضياء أزرق (٣) غشاء معدني حساس بالضوء يجعل الضوء الأزرق تياراً من الكهيربات (٤) حجاب متألق للمشاهدة يجعل الصورة الكهيربية، ضياء مشرقاً أصفر (٥) الطبيب يرى صورة أشعة رنتجن أعظم اشراقاً ٥٠٠ مرة

(البيولوجي) وقد تتفرّع على صرّ الأيام اتجاهات أخرى مبنية على الميول المكبوتة إذا ما صادفت محيطاً مناسباً لازدهارها . فقد أثبت علم النفس أن كل انسان يولد ومعه قابلياته وميوله وغرائزه الخاصة ، فهذا ميال الرياضيات لقابليته الطبيعية لها ، وهذا للرياضة ، وذاك للاختراع أو الموسيقى أو الآداب وغيرها . وكذلك نفس الكفاءة ذات اتجاهات وميول مختلفة فمن الأدباء من يميل الى الاعتزال ومناجاة الطبيعة فيستغل كفاءته الأدبية في هذا اللون من الأداء . ومنهم من يميل إلى الغزل والغناء فيبدع في شعر الرقة من غزل ونسيب وتشبيب ، ومنهم من يميل الى السياسة والزعامة فيبدع في شعر الحماسة والحكمة وغيرها . وعلى هذا القياس فاننا لا يمكننا بأية حال ان نرغم الشاعر الغزلي بأن يكون شاعراً حماسيّاً جاهليّاً لان الطبيعة لم تجهزه لذلك . ولذلك فلا يجود ولا يجيد الشعر ، ومن ثمّ فلا يصيب الهدف ولا تحصل الفائدة منه ، هذا إذا ما عرفنا ان الحياة ليست السياسة والاجتماع فقط ، بل لها نواحٍ متعددة ، وكل فرد سواء أكان شاعراً أو أديباً أو عادياً فله نصيب — ولو ضئيلاً — في بناء الحياة كمثل من يكتفي بكلامه في التلميح ومن يكتفي بالأطناب . وعلى ما تقدم فاني أرى النقد على أساس المذاهب السابقة غير صحيح وغير مؤيد من العقل والطبيعة البشرية ومن طبيعة الشعر ، لأن الشعر لغة العواطف وهذه ان لم تهيج بأثر الشعر باردا خالياً من حرارة العاطفة لا يهزّ المشاعر خالياً من كل فائدة ترجى منه .

ولقد فاق بعض نقدة الآداب في ذم الشعر القديم (الكلاسيكي) في المعنى والاسلوب مع أن الحياة ذات كائنات حية غير متساوية الميول والمشارب ، فلكل جماعة ميول متقاربة تهوى لوناً من الأدب كما تهوى بعض الناس لوناً من الغناء وتكره آخر . فليس من الانصاف أن نسهم اصطناعيّاً في ذائب واحد للانسانات الذوق واحد . هذا بالاضافة الى ان فقه اللغة مستند على القديم ، وكتب البلاغة العربية كلها مستندة عليه ، فلم نجد في شواهدها شيئاً من الشعر الحديث ، فكيف اذن نعتز به ونقتفيه إلاّ اذا ضربنا بها عرض الحائط . ويمكنني ان أقول انّ شاعرنا الحديث لا يستفحل إلاّ إذا جارى القدماء في صياغة الاسلوب مع نفخ حوشي الكلام ، وهذه حقيقة يقر بها كل شاعر أو أديب لو سئل عنها . إذ أنه مهما تقدم في صياغته فإنه يقر بتقصيره عن سمو القدماء في روائعهم وحتى عن مساوآتهم . وأحسن

قصائد شوقي في معارضاته وما نسج على بلاغة الاسلوب القديم .

ويحض بعض النقدة على اقتباس الشعر الغربي ويحسبونه فوق كل شيء فكأنه العواطف الحساسة والاخيلة الرفيعة خصتا بالغربيين، مع أن في شعرهم القديم والحديث والنفيس والخسيس علاوة على مفارقات الذوق . وإني لا أرى ان هذا الشعر أحسن من الشعر العربي ولا أحرم الترجمة وتلاقح الفكر والخيال. ولكنني أرى أن لا يعتبر غاية وقتة للأدب العربي . كما أرى ان ينسب عند ترجمته — نثراً أو نثراً — الى قائله أو أن يوضع بين علامتي اقتباس . لان كثيراً من نظامي الشعر وناشئة الادب أساءوا الاستعمال فترجموا القصائد الغربية وفسروها لانفسهم وطبعوا دواوين منها مع انهم لا يحسنون النظم الصحيح بدليل كثرة الاخطاء العروضية فيها، ولا شك ان هذا مسخ وجرم وسرقة في رابعة النهار . إذ أن الواجد أن يقتفي قسبة الفضل لذويه، وخير مثال لذلك في الانصاف الدكتور الشاعر « أحمد زكي أبو شادي » كانه يضع النص الانكليزي وبجنبه النص العربي المنظوم بمعناه من غير زيغ ولا تحريف ولا سطوة على آثار الناس كما يفعل بعض الشباب الذين أسلفنا القول عنهم . فستخلص مما تقدم أنه لا ضير على أي أديب أو شاعر إذا ما انتهج نهجاً موافقاً لميله في الانتاج. لان الطبيعة خصته بذلك، وكل فرد مسير لا مخير . وإنه لا نقد على أي اتجاه أدبي إذ أن هذا معناه نقد لتكوين النفس وتركيب الجسم ولا قدرة لمخلوق على اصلاحهما ، وأن الأدب الذي يمثل الحياة أو يخدمها لا يمكن أن يقوم به أديب واحد، بل انه يتكون من مجموعة نوازع الشعراء والادباء الفطرية، وليس بالشرط أن يكون كل شاعر سياسيًّا . ومن يعتقد بذلك فكأنه يجاري الشاعر العربي في قوله :

ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

وانه لا توجد عبارة الادب للأدب إلا في البحوث الخاصة برقي الاساليب الأدبي في الصياغة، وأن النقد الأدبي يجب أن يشتمل أو يقتصر على النقد الفقهي الخاص بفنون اللغة العربية كالعروض والنحو وعلوم البلاغة العربية . وأما نقد الاتجاه فهو من صفات المكان الحي فلا اعتراض ولا نقد عليه . ومن يتصدى لذلك ، نطلب منه أن يوجد لنا خلية حية .

للقورة — البحرة

سمير سليم الصعر